موقف حُكَّام السواحل العربية الجنوبية من التوسع البرتغالي (1507–1538)

سماح سعيد علي يسلم العزاني[1]

ملخص

الأهداف: سعت الدراسة إلى تقديم لمحة تاريخية عن الأوضاع السياسية في السواحل العربية الجنوبية خلال فترة التوسع البرتغالي الممتدة من 1507–1538، وبيان قدرة الدولة الكثيرية والدولة الطاهرية على الصمود في وجه التحديات التي واجهتها المنطقة. شملت هذه التحديات كلاً من الصراعات الداخلية والأطماع الخارجية. **المنهج:** اتّبعت الدراسة منهجية بحثية متكاملة، جمعت بين المنهج التاريخي لتحليل الوقائع والأحداث المدونة في المصادر والوثائق التاريخية، والمنهج الوصفي التحليلي لتقييم الأهمية الإستراتيجية والاقتصادية للسواحل العربية الجنوبية. وقد تمحور التحليل حول دوافع القوى الإقليمية (البرتغاليين، المماليك، والعثمانيين) في محاولاتهم المتكررة للسيطرة على المنطقة، وكذلك دوافع حكام السواحل المحليين في سياسة المهادنة مع البرتغاليين. **النتائج:** خلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج التي تُقدّم رؤية شاملة لتلك الحقبة التاريخية، ومنها: انشغال حكام السواحل العربية الجنوبية بالتصدي لتمرد أفراد العائلة الحاكمة وحكام المناطق التابعة لهم؛ مما أسهم في إضعاف قدراتهم على مواجهة الخطر الخارجي المتمثل في المماليك والعثمانيين والبرتغاليين. على الرغم من ذلك، استطاع حكام السواحل العربية الجنوبية مقاومة البرتغاليين وتحقيق الانتصار عليهم، إلا أن تصاعد الخلافات الداخلية ومواجهة الخطر المملوكي والعثماني، دفع حكامَ السواحل العربية الجنوبية إلى مهادنة البرتغاليين. **الخاتمة:** قدمت الدراسة بشكل جلي موقف حكام السواحل العربية الجنوبية من التوسع البرتغالي، وقد راوحت مواقفهم بين مقاومة البرتغاليين ومهادنتهم، وكان ذلك مرهوناً بالأوضاع السياسية في السواحل العربية. فعندما توافرت لهم الإمكانيات اللازمة من استقرار أوضاع دولهم، ووقف حركات التمرد ضدهم، وتوافر القوى البشرية والمادية، تبنّت دول السواحل خيار المقاومة، وأما عند انعدام تلك الإمكانيات، فقد لجؤوا إلى خيار المهادنة.

الكلمات المفتاحية: السواحل العربية الجنوبية، الدولة الكثيرية، الدولة الظاهرية، التوسع البرتغالي، الدولة العثمانية

تُسلّم البحث في: 2025/9/7
أجيز للنشر في: 2026/2/16

العزاني، سماح سعيد علي يسلم. (2026). موقفَ حُكَّام السواحل العربية الجنوبية من التوسع البرتغالي (1507 – 1538). *مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية*، *52*(200)، 209–240.

https://doi.org/10.34120/jgaps.v52i200.3575

© مجلس النشر العلمي/ جامعة الكويت.

هذه الدراسة ذات وصول مفتوح نشرت بموجب رخصة المشاع الإبداعي - النسبية غير التجارية.

(1) باحث، مركز الدراسات والبحوث اليمني. عدن، اليمن. smahzany866@gmail.com

The position of the rulers of the southern Arab coasts on Portuguese expansion (1507–1538)

Samah S. A. Y. Al-Azani[1]

Abstract

Objectives: This study aimed to provide a historical overview of the political conditions in the southern Arabian coasts during the period of Portuguese expansion from 1507 to 1538, and to demonstrate the resilience of the Kathiri and Tahirid states in facing the challenges that confronted the region. **Method:** The study adopted an integrated research methodology, combining the historical method to analyze facts and events documented in sources and historical records, and the analytical descriptive method to evaluate the economic importance of the southern Arabian coasts, as well as the motives of local coastal rulers in their policy of appeasement towards the Portuguese. **Results:** The study concluded with a set of findings including the preoccupation of the rulers of the southern Arabian coasts with confronting rebellions by members of the ruling family and their subordinate regional governors, which weakened their capacity to counter external threats. Despite this, these rulers were able to resist the Portuguese and achieve victories over them. However, the escalation of internal disputes and the confrontation with Mamluk and Ottoman threats drove the rulers of the southern Arabian coasts to appease the Portuguese. **Conclusion:** The study clearly presented the stance of the southern Arabian coastal rulers towards Portuguese expansion, which varied between resistance and appeasement, depending on the political conditions on these coasts. When they possessed the necessary capabilities, primarily the stabilization of their internal affairs, the coastal states chose the path of resistance. Conversely, in the absence of these capabilities, they resorted to appeasement.

Keywords: Southern Arabian coasts, Kathiri State, Tahirid State, Portuguese expansion, Ottoman Empire

Submitted: 9/7/2025
Accepted: 16/2/2026

Al-Azani, S. A. Y. (2026). The position of the rulers of the Southern Arab Coasts on Portuguese expansion (1507 – 1538). *Journal of the Gulf and Arabian Peninsula Studies, 52*(200), 209–240.

https://doi.org/10.34120/jgaps.v52i200.3575

© APC/Kuwait University.

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license.

(1) Researcher, Yemeni Center for Studies and Research. Aden, Yemen. smahzany866@gmail.com

المقدمة

تولَّت الدولتان الطاهرية والكثيرية حُكمَ السواحل العربية الجنوبية المطلة على خليج عدن والبحر العربي. وتُعدُّ هذه السواحل ممرّاً رئيسيّاً للسفن التجارية القادمة من الهند والصين والحبشة والمغادرة منها. وقد حافظت هاتان الدولتان على علاقات تجارية مع مصر، وحكام الإمارات الإسلامية في الهند، بالإضافة إلى مملكة هرمز التي كانت تسيطر على مدخل الخليج العربي.

إلا أن وجود البرتغاليين في الهند وسيطرتهم على جزيرة سقطرى[1] مكَّنهم من محاصرة الطرق التجارية والاعتداء على السفن الإسلامية؛ مما انعكس سلباً على الوضع الاقتصادي لليمن بشكل عام، ومدينتي عدن والشحر بشكل خاص. وكانت هاتان المنطقتان عُرضةً للهجمات البرتغالية المتكررة، التي هدفت إلى فرض السيطرة عليهما.

ففي مراحل تاريخية، تمكّن حكام السواحل العربية الجنوبية من مقاومة البرتغاليين وصدّ هجماتهم، بينما فضّلوا في فترات أخرى مهادنتهم ودفع الجزية السنوية، وفتح موانئهم للسفن البرتغالية، واستقبال ممثلي التاج البرتغالي. إلا أن الدمار الذي حلّ بالسواحل العربية الجنوبية لم يكن ناتجاً من القصف البرتغالي فحسب، بل كان ناتجاً أيضاً من هجمات دولة المماليك، التي استغلت تعاون بعض حكام السواحل مع البرتغاليين كذريعة للتدخل، ولا سيما حكام الدولة الطاهرية. فقد قام المماليك باغتيال السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري، وسيطروا على أجزاء من مناطق نفوذه. كما أسهمت اعتداءات العثمانيين في تفاقم الدمار، وبلغت ذروتها بإعدام آخر حكام الدولة الطاهرية، عامر بن داؤود الطاهري.

أهمية الدراسة

1 – تقديم لمحة تاريخية عن الأوضاع السياسية في السواحل العربية الجنوبية في أثناء التوسع البرتغالي.

2 – تُسلط الدراسة الضوء على قدرة الدولة الكثيرية والدولة الطاهرية على الصمود في وجه الصعوبات التي شهدتها السواحل العربية الجنوبية، من صراعات داخلية وأطماع خارجية.

(1) جزيرة سقطرى: تقع في أقصى شمال المحيط الهندي، وبذلك تتحكّم بمسار التجارة العالمية التي تربط أوروبا بالخليج والمحيط الهندي (الربابعة، 2011).

3– تُظهر الدراسة الأهمية الاقتصادية للسواحل العربية الجنوبية، تلك الأهمية التي دفعت البرتغاليين والمماليك والعثمانيين إلى إرسال حملات عديدة لإخضاعها.

4 – اعتمدت الدراسة على بعض المصادر والمراجع التي لم تحظَ بالاهتمام الكافي من الباحثين عند تناول موضوع التوسع البرتغالي على السواحل العربية الجنوبية. ومن أبرز هذه المصادر: كتاب "الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد"، وكتاب مترجم من سجلات ألفونسو دي ألبوكيرك، بالإضافة إلى كتاب مهم باللغة الإنجليزية "صعود القوة البرتغالية في الهند 1497–1550" الذي صدر عام 1899.

5 – تكشف الدراسة عن دوافع حكام السواحل العربية الجنوبية في مهادنة البرتغاليين والتوقيع على اتفاقيات تتضمن شروطاً مجحفة بحق دولهم.

منهج الدراسة

اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي، الذي يهدف إلى جمع المعلومات وتحليلها من خلال المصادر التاريخية؛ بغية تكوين رؤية واضحة عن الأوضاع السياسية في السواحل العربية الجنوبية قبل التوسع البرتغالي، وذلك عبر استعراض تاريخ الدولة الطاهرية في عدن والدولة الكثيرية في الشحر، والاعتماد على تلك المصادر للكشف عن الحقائق التاريخية. كما استندت إلى المنهج الوصفي التحليلي، الذي مكّن الباحثة من تقييم الأهمية الاقتصادية للسواحل العربية الجنوبية، وهي الأهمية التي دفعت البرتغاليين إلى توسيع نفوذهم في تلك السواحل، وساعد هذا المنهج أيضاً في تتبّع مسار التوسع البرتغالي وبيان مواقف حكامها بين مقاومة هذا التوسع ومهادنته.

الدراسات السابقة

هناك العديد من الدراسات السابقة التي تناولت التوسع البرتغالي، غير أن القليل منها خصّ السواحل العربية الجنوبية بالبحث، وقد استفادت هذه الدراسة مما قُدّم سابقاً، إلا أننا حرصنا أولاً على الاستفادة من المعلومات الواردة في أمهات الكتب التاريخية التي تناولت التوسع البرتغالي في منطقتنا العربية، ثم رجعنا إلى الدراسات الحديثة، ونذكر منها الآتي:

دراسة أحمد (1989)، وتناولت قيام الدولة الطاهرية التي سيطرت على عدن الواقعة في السواحل العربية الجنوبية، وما واجهته من صراعات داخلية وأطماع خارجية. كما أبرزت

الأهمية التجارية لميناء عدن، وهو ما استفادت منه دراستنا في تدوين بعض المعلومات المتعلقة بالمبحث الأول الخاص بالأوضاع السياسية في السواحل العربية الجنوبية في أثناء التوسع البرتغالي، والمبحث الثاني المتعلق بالأهمية الاقتصادية لتلك السواحل.

دراسة بن هاشم (2002)، وتناولت قيام الدولة الكثيرية التي فرضت سيطرتها على مدينة الشحر الواقعة في السواحل العربية الجنوبية، وما واجهته من صراعات داخلية وأطماع خارجية. وقد استفادت دراستنا من هذا الكتاب في تدوين بعض المعلومات المتعلقة بالمبحث الأول الذي تناول الأوضاع السياسية في السواحل العربية الجنوبية في أثناء التوسع البرتغالي، وكذلك المبحث الثالث الذي تناول مقاومة حكام تلك السواحل للتوسع البرتغالي.

دراسة با مطرف (1983)، وتناولت التوسع البرتغالي في عدن والشحر، ومواقف حكامهما بين مقاومة هذا التوسع ومهادنته في بعض الفترات التاريخية. وقد استفادت دراستنا من هذا الكتاب في تدوين معلومات مرتبطة بالمبحث الثالث الخاص بمقاومة حكام السواحل العربية الجنوبية للتوسع البرتغالي، والمبحث الرابع المتعلق بمهادنة هؤلاء الحكام للبرتغاليين.

دراسة السلمان (2000)، وتناولت الدافع الاقتصادي للتوسع البرتغالي، كما سردت أحداث التوسع البرتغالي في السواحل العربية الجنوبية. غير أن دراستنا جاءت أوسع نطاقاً؛ إذ امتدت تغطيتها حتى عام 1538، إلى جانب اعتمادها على مصادر ومراجع لم تتناولها الدراسة السابقة، ومنها: السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، روح الروح (فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح)، تاريخ حضرموت (تاريخ شنبل)، الشهداء السبعة، وكتاب باللغة الإنجليزية بعنوان صعود القوة البرتغالية في الهند 1497–1550، وقد استفادت دراستنا من هذا الكتاب في تدوين بعض المعلومات المتعلقة بالمبحث الثاني الخاص بالأهمية الاقتصادية للسواحل العربية الجنوبية، والمبحث الثالث المتعلق بمقاومة حكام تلك السواحل للتوسع البرتغالي.

كتاب Whiteway (1899)، ويُعد هذا الكتاب من المراجع التي لم يستفد منها الكثير من الباحثين على الرغم من أهميتها. وقد تناول التوسع البرتغالي في السواحل العربية الجنوبية، وموقف حكامها بين المقاومة والمهادنة. وقد استفادت دراستنا من هذا المرجع في تدوين بعض المعلومات المتعلقة بالمبحث الثالث الخاص بمقاومة حكام السواحل العربية الجنوبية للتوسع البرتغالي، والمبحث الرابع المتعلق بمهادنة هؤلاء الحكام للبرتغاليين.

مباحث الدراسة

تتضمن الدراسة أربعة مباحث، وهي على النحو الآتي:

المبحث الأول: الأوضاع السياسية في السواحل العربية الجنوبية في أثناء التوسع البرتغالي، سنستعرض في هذا المبحث قيام الدولة الطاهرية والدولة الكثيرية، بالإضافة إلى الخلافات الداخلية بين أفراد الأسرة الحاكمة، وتمرد القبائل، والتهديد المستمر من الأئمة الزيدية؛ مما أدى إلى إضعافهما.

- المبحث الثاني: الأهمية الاقتصادية للسواحل العربية الجنوبية، سنناقش في هذا المبحث النشاط التجاري في أهم موانئ السواحل العربية الجنوبية، والبضائع التي تمر عبرها، وفقدان تلك الموانئ لجزء من نشاطها بعد قيام البرتغاليين بتحويل طرق التجارة.
- المبحث الثالث: مقاومة حكام السواحل العربية الجنوبية للتوسع البرتغالي، سنتناول في هذا المبحث مقاومة السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري وأمير عدن مرجان الظافري، والسلطان بدر بن عبدالله بن جعفر بن عبدالله بن علي بن عمر بو طويرق، والضابط رجب التركي.
- المبحث الرابع: مهادنة حكام السواحل العربية الجنوبية للبرتغاليين، سنكشف في هذا المبحث عن دوافع حكام الدولتين الطاهرية والكثيرية إلى توقيع اتفاقيات صلح مع البرتغاليين، تقضي بدفع جزية سنوية، وفتح موانئ عدن والشحر أمام القوات البرتغالية.

المبحث الأول: الأوضاع السياسية في السواحل العربية الجنوبية في أثناء التوسع البرتغالي

خضعت السواحل العربية الجنوبية لحكم الدولة الرسولية التي حكمت اليمن لمدة تقارب مئتين وثلاثين عاماً، فانتهزت قوى يمنية حالة الضعف والانقسام التي مرت بها الدولة الرسولية لتأسيس دولها على أنقاضها. وتمكنت الشحر –إحدى المناطق المهمة في السواحل العربية الجنوبية– من الخروج عن سيطرة الدولة الرسولية؛ إذ تولت قبيلة كندة إدارتها، قبل أن تخضع بعد ذلك لسلطة آل كثير. بينما استطاع نواب الدولة الرسولية (آل طاهر) الانفراد بحكم عدن وتأسيس الدولة الطاهرية. وبذلك انفردت الدولتان الكثيرية والطاهرية بإدارة السواحل العربية الجنوبية (أحمد، 1989).

أولاً: الدولة الكثيرية

ينتمي آل كثير إلى قبائل همدان التي طمحت إلى المُلك وسعت إليه، وتحقق ذلك بعد ضعف قبيلة كندة (اليافعي، 1354هـ). ومن أبرز الشخصيات الكثيرية علي بن عمر بن جعفر بن بدر بن محمد بن علي بن عمر بن كثير، وهو أول من حول القبيلة الكثيرية إلى دولة. عمل على توطيد دعائم السلطنة وصد محاولات التمرد ضد حكمه. وفي 825هـ توفي، وخلفه في الحكم ابنه عبدالله، الذي تولى حكم حضرموت وظفار، وجعل قيادة الجيش لأخيه محمد (بن هاشم، 2002). وهو أول من لقب بلقب "السلطان"[(2)].

وفي فترة حكمه، أراد حاكم الشحر سعد بن فارس (المعروف بأبي دجانة) الاستيلاء على ظفار832هـ، بينما كان السلطان عبدالله بن علي في حضرموت منشغلاً بتنظيم السلطنة. أعد جيشاً منها لمواجهة أبي دجانة، الذي انسحب قبل وصول السلطان عبدالله باثني عشر يوماً (شنبل، 2003). كما أعلنت تريم تمردها، فأرسل أخاه محمداً لاستعادتها (بن هاشم، 2002). ومن ظفار، توجه السلطان إلى تريم ودخلها في 833هـ ومعه 200 فارس و115 مقاتلاً. وفي رمضان 842هـ / 1439، تمكن من ضم سيئون (شنبل، 2003) وإجهاض محاولات التمرد التي قام بها كل من آل يماني وآل أحمد والصبرات وبعض آل كثير وآل ثعلب وحاكم مريمة وتريم.

وفي السنوات الأخيرة من حكمه، وقعت خلافات بين ابنيه محمد وبدر، استطاع بدر فرض سيطرته على بعض الأراضي في بور (شرق مدينة سيئون – المعقل الرئيسي لآل كثير) في 848هـ /1444، وهاجم الحصن الذي بناه أخوه محمد واستولى على بعض المعدات الحربية الموجودة فيه (الجعيدي، 2014). على الرغم من الخلافات داخل العائلة الحاكمة، سعى السلطان عبدالله إلى فرض سيطرته على المناطق المتمردة. وفي رجب 850هـ /1446، توفي السلطان عبدالله بن علي (شنبل، 2003)، وتولى الحكم من بعده ابنه محمد بن عبدالله.

في عهد محمد بن عبدالله، شهدت حضرموت حركات تمرد (بن هاشم، 2002)؛ فاندلعت في 854هـ حرب بين آل كثير وأهل المسفلة (المنطقة السفلى من وادي حضرموت) وراصع بن يماني ومعه أولاد دويس والصبرات وفارس وأصحابه، بالإضافة إلى علي بن كثير وسليمان

(2) المؤرخ أحمد بن عبدالله شنبل يؤكد أن من لقب بلقب السلطان هو عبدالله بن علي، بينما المؤلف محمد بن هاشم يؤكد في كتابه أن علي بن عمر هو من لقب بلقب السلطان.

وآل عبدالله وحلفائهم. انتهت الحرب بعقد صلح بين الأطراف لمدة عام، لكن الصلح لم يستمر، فهاجم فارس وآل عبدالله وحلفاءهم –مع آل يمين وآل ثعلب– سيئون وجفل (قرية في شبام) والغرفة، ثم انسحبوا بعد أن جهز السلطان جيشاً لمحاربتهم (شنبل، 2003).

وفي 855هـ، توفي السلطان محمد بن عبدالله، وخلفه في الحكم أخوه بدر بن عبدالله. سرعان ما اغتنمت قبائل المسفلة الفرصة وأعلنت الحرب من جديد على الدولة الكثيرية (بن هاشم، 2002) بالقرب من كحلان (موقع يُعرف باجلحبان) حيث انتصر السلطان بدر (الكندي، 2003) وقتل من أهل المسفلة 100 رجل، بينهم راصع بن دويس وراصع بن يماني، كما قُتل عشرة من آل عمر وعشرة من آل جسار (منهم عمر بن جسار) وأكثر من عشرة من الصبرات. بعد ذلك، عقد الشيخ عبدالله أبو بكر علوي صلحاً بين السلطان البدر وقبائل المسفلة سُمي "صلح الغدير".

عادت الخلافات بين آل كثير على السلطة في 858هـ في منطقة بور، حيث تمرد على السلطان بدر عدد من أفراد الأسرة الحاكمة، وهم: علي بن محمد الكثيري، ورطاس بن بدر وآل يماني بن جعفر. وعُقد صلح بين الطرفين، إلا أن السلطان شعر بخيانة ابن أخيه علي بن محمد الكثيري، فقتله ومن والاه في سيئون (شنبل، 2003).

وفي 867هـ[3]، استطاع السلطان بدر (الكندي، 2003) ضم الشحر دون قتال، بعد أن طلب منه السلطان عامر الظاهري إدارتها إثر التخلص من حكم محمد بن سعيد بن فارس (أبي دجانة)[4] (الجعيدي، 2014). وفي 894هـ / 1488، توفي السلطان بدر بن عبدالله الكثيري في شبام، وخلفه أخوه جعفر بن عبدالله الكثيري، الذي كان بعيداً عن الشؤون السياسية، منشغلاً بالتجارة والتقرب من شيوخ العلويين؛ مثل الشيخ عمر المحضار بن الشيخ، الذي أشار إليه لتولي السلطنة (بن هاشم، 2002).

وفي 901هـ / 1495، تمرد عليه ابنا السلطان محمد بن عبدالله –بدر وعبدالله– واستوليا على سيئون والغرفة في العام التالي. وحاول عبدالله السيطرة على شبام، فأرسل

(3) المؤرخ أحمد بن عبدالله شنبل يذكر الحادثة ويؤرخ لها في 868هـ.

(4) سنَتناولُ حملةَ الاستيلاء على عدن التي قادها محمد بن سعيد بن فارس (أبي دجانة) عند الحديث عن الدولة الطاهرية.

السلطان جعفر قواتٍ لاستعادتها بقيادة ابنه عبدالله، وقُتل فيها نحو 58 شخصاً، بينهم عبدالله بن محمد، أما بدر؛ فقد تمكن من السيطرة على هينن (شمال غرب مديرية القطن في حضرموت)، لكن قوات السلطان استعادتها لاحقاً (الجعيدي، 2014).

وفي آخر ذي الحجة 905هـ/1499، اغتالت قبائل الظلفان السلطان جعفر (بن هاشم، 2002)، وخلفه ابنه عبدالله بن جعفر، وبعد عام من توليه الحكم، وقع خلاف بين السلطان وأخويه بدر وعمر؛ مما دفعه إلى قتلهما (الكندي، 2003). ثم أعلن حاكم هينن تمرده على السلطان، وسعى الشيخ عبدالرحمن الأخضر با هرمز إلى التوسط بين الطرفين حقناً للدماء، لكن السلطان رفض الصلح؛ لأن قبائل الظلفان –التي ينتمي إليها الحاكم– كانت قد ثارت سابقاً وقتلت والده (بن هاشم، 2002).

في 18[(5)] من محرم 910هـ الموافق 30 يونيو 1504[(6)]، توفي السلطان في الشحر (الكندي، 2003)، فتولى الحكم من بعده ابنه محمد بن عبدالله بن جعفر، الذي كان قائد الجيش في عهد والده (بن هاشم، 2002). وفي عهده، استمر تمرد تريم وقبائل المسفلة والعوابثة وآل دويس، وفي ربيع الآخر 927هـ الموافق مارس 1521، طلب السلطان محمد من خطيب الشحر إسقاط اسمه من الخطبة والخطبة لأخيه بدر المعروف "بو طويرق" تنازلاً عن الحكم لصالحه (بافقيه، 1999).

تميزت فترة حكم بدر "بو طويرق" بفرض سيطرته وقمع حركات التمرد، مستعيناً بقوات خارج حضرموت؛ مثل قبائل يافع –التي قُدِّر عددها بـ 5 آلاف مقاتل– (اليافعي، 1354هـ)، والأتراك الذين وصلوا إلى اليمن. فقد طلب السلطان دعم جماعة بقيادة رجب التركي، فأكرمهم وأعلنوا الطاعة له، ثم خرج بهم إلى حضرموت، ومعهم البندق، الذين كان أول دخول إلى حضرموت بوساطتهم.

(5) تختلف الروايات حول تاريخ وفاة السلطان عبدالله بن جعفر؛ فالمؤرخ الكندي يحدد الوفاة في 18 محرم، بينما يُقال أيضاً إنها كانت في 17 محرم. ويذكر المؤرخ بافقيه أن الوفاة كانت في 17 محرم، في حين يذكر المؤرخ شنبل أنها وقعت في 16 محرم.

(6) حوّلت التواريخ الهجرية إلى تواريخ ميلادية باستخدام محولات إلكترونية متخصصة في التحويل بين التقويمين الهجري والميلادي.

بدأ السلطان بدر (بو طويرق) بإعادة مجد آل كثير، فأمر في صفر 934هـ[7] بضرب العملة في الشحر (الكندي، 2003). شملت هذه العملة نقوداً فضية من فئة الريال والنصف والربع، بالإضافة إلى نقود نحاسية. وقد أمضى السلطانان محمد وبدر نحو اثني عشر عاماً في حالة من التوافق والاتحاد، إلا أن الخلافات بدأت بينهما فاعتمد كل طرف على قوات من خارج حضرموت.

فقد جنَّد السلطان محمد جماعة من المهرة، واستعان بهم لمحاصرة مناطق المهرة في 24 من محرم 940هـ الموافق 14 من أغسطس 1533. في المقابل، اعتمد السلطان بدر على أشراف الجوف الذين كان يرأسهم الشريف الناصر بقوة قوامها 32 فارساً في 942هـ.

وعلى الرغم من عقد الصلح بين الأخوين، فإن الخلافات عادت إلى الظهور مجدداً. فقد سعى السلطان محمد إلى تأليب قبائل حضرموت ضد السلطان بدر. ثم بُذلت محاولات جديدة للصلح تمخضت عن اتفاقية تقاسم السلطة، ونصّت على أن تكون سيئون خاضعةً لحكم السلطان محمد وهينن تحت حكم السلطان بدر. غير أن الخلافات تجددت؛ مما اضطر السلطان محمد في النهاية إلى الاكتفاء بولاية الشحر نائباً عن السلطان بدر (بن هاشم، 2002).

ثانياً: الدولة الطاهرية

شهدت اليمن في عهد الملك المسعود صلاح الدين أبي القاسم بن الأشرف –آخر ملوك الدولة الرسولية– صراعات سياسية وقبلية متعددة، كان من أبرزها الصراع بين قبيلتي يافع: آل أحمد وآل كلد: إذ كان آل أحمد يتولون إدارة حصون عدن وأسوارها ويقومون بحراستها، في حين سيطر آل كلد على المدينة نفسها. وفي خضم هذه الأوضاع، تمكّن بنو طاهر من فرض حصار على عدن؛ مما دفع الملك المسعود –خشيةً من انحياز قبائل يافع لبني طاهر وتسليمهم المدينة لهم– إلى مغادرة عدن والتوجّه إلى العارة.

كما شهدت هذه الفترة تحولاً دراماتيكياً في مواقف القوى المحلية؛ إذ انضمّ عدد من أعيان آل أحمد –ومنهم النقيب طاهر بن عامر والنقيب بأكسامه وآخرون– إلى بني طاهر، وتحالفوا معهم لتسليم عدن وإخراج آل كلد منها (با مخرمة، 2007).

(7) في كتاب حضرموت (تاريخ الدولة الكثيرية) يُذكر أن السلطان بدر ضرب عملة باسمه في 937 هـ.

وفي 23 من رجب 858هـ الموافق 18 من يوليو 1454، وصل الملك المجاهد شمس الدين علي بن طاهر وأخوه الظافر إلى عدن، حيث كان فيها المؤيد حسين بن الظاهر يحيى بن إسماعيل الأشرف –أحد ملوك الدولة الرسولية– الذي منحه بنو طاهر الأمان، واشتروا منه ممتلكاته من الطبلخانة (مكان الطبل أو محل الطبل) والخيول والسلاح. أما المسعود؛ فقد تنازل عن الحكم وطلب من أعيان زبيد إعلان الولاء للملك المجاهد.

شهدت الدولة الطاهرية في عهد الملك المجاهد توسعاً كبيراً في نفوذها؛ فقد بدأ بضم الحديدة عندما وفد إلى عدن الشيخ يحيى بن عمر الثابتي وأعلن الطاعة والولاء لآل طاهر. وفي 3 من شوال 859هـ الموافق 15 من سبتمبر 1455، توجه الملك المجاهد من عدن إلى جُبَن – معقل آل طاهر– حيث جهز جيشاً لضم تعز (الديبع، 1983). وفي العام نفسه، تمكن من دخول زبيد دون قتال (با مخرمة، 2007).

وفي 864هـ اتفق الملك المجاهد مع أخيه الظافر على توحيد الرموز السيادية، فأصبحت الخطبة في المساجد وصك العملة النقدية تحمل اسم الملك المجاهد بعد أن كانت باسم الملك الظافر. وفي رمضان من العام نفسه، دارت معركة بين الملك الظافر وإمام صنعاء، وواصل الملك الظافر سياسته التوسعية. ففي غرة رجب 865هـ الموافق 11 من أبريل 1461، استطاع الملك الظافر الاستيلاء على ذمار (الديبع، 1983).

وفي 866هـ طلب الملك الظافر من عامر بن طاهر الاستيلاء على الشحر، غير أنه مَرِضَ في الطريق وتوفي. وفي شهر صفر من العام نفسه، جَهَّزَ الملك الظافر جيشاً كثيرَ العدد للاستيلاء على الشحر، فبلغت أجرةُ الجمال التي تحمل معدات الجيش نحو 12 ألف دينار. وعند وصول القوات، غادر حاكمها أبو دجانة. وفي 17 من صفر، اقتحمها الأمير زين الدين جياش السنبلي، ثم دخلها الشيخ عبدالملك بن داؤود، فتعرضت الشحر للنهب. وعند دخول الملك الظافر، أمر بوقف النهب، وجعل الأمير أحمد بن إسماعيل بن شقراء النمي[8] أميراً عليها.

ثم توجَّه الملك الظافر إلى عدن في أول ربيع الأول، فلما وصل، عَلِمَ أن إمام صنعاء استولى على ذمار، وكان عبدالوهاب قريباً منها، فتوجَّه إليها حتى جاءه عمه الملك الظافر واستعادها ولكن جنوده نهبوها. وفي شوال، استولى المجاهد والظافر على صنعاء.

(8) في كتاب (قلادة النحر وفيات أعيان الدهر) يُذكر أن أمير الشحر هو أحمد بن إسماعيل بن سفر اليمني.

وفي محرم 869هـ استعاد الإمام محمد بن الناصر صنعاء (وكان أميرها من قبل بني طاهر محمد بن عيسى البعداني) فجهَّز الملك الظافر جيشاً من 1,300 فارس وعدد كبير من المقاتلين، وتوجَّه إلى صنعاء، فصالحه الإمام على أن يدفع له المال.

وفي 7 من ذي القعدة 870هـ الموافق 20 من يونيو 1466، قُتِلَ الملك الظافر في صنعاء عندما توجَّه إليها بطلب من أهلها. وقيل إن أميرها محمد بن عيسى شارب غدر بالملك الظافر وقتله (الديبع، 1983). واستمر الصراع بين الدولة الطاهرية والزيديين (با مخرمة، 2007).

وفي 15 من محرم 877هـ الموافق 21 من يونيو 1472، مَرِضَ الملك المجاهد في زبيد، وجعل ابن أخيه عبدالوهاب داؤود خلفاً له حتى تعافى. وفي 29 من رمضان 879هـ الموافق 5 من فبراير 1475، عيَّن الملك المجاهد ابن أخيه الشيخ يوسف حاكماً على زبيد، فتمكَّن من بسط الأمن والعدل، فأحبه أهل العلم (الديبع، 1983).

وفي 10 من ربيع الآخر 883هـ الموافق 10 من يوليو 1478، تُوفي الملك المجاهد ودُفِنَ في زبيد، وتولى الحكم من بعده ابن أخيه الملك المنصور تاج الدين بن عبدالوهاب بن داؤود بن طاهر، الذي توجَّه إلى عدن في ليلة وفاة عمه. وفي 13 من ربيع الآخر الموافق 13 من يوليو من العام نفسه، وصل إلى عدن دون علم أهلها بوفاة الملك المجاهد، فلما دخلها، أشاع خبر الوفاة، ورتَّب أمور دولته في عدن، ووزَّع الأموال والكسوة على القوات، وأعاد تعيين القاضي جمال الدين محمد بن حسين القماط ولاية القضاء بعدن.

وبعد وفاة الملك المجاهد، بدأت الصراعات على السلطة بين آل طاهر؛ فتمرد الشيخ يوسف بن عامر (ابن عم الملك المنصور وحاكم زبيد) على الرغم من وعود الملك المنصور بتقديره كما كان في عهد الملك المجاهد، وأرسل له المال، لكنه رفض واستعد لقتاله، وكلف أهل زبيد حمل السلاح، وتوعدهم إن لم ينصروه. وبوساطة أخيه الشيخ أحمد والشيخ بحير بن محمد بن وهبان، أعلن الشيخ يوسف الطاعة لابن عمه.

وبقي حكم الملك المنصور حتى وفاته في 7 من جمادى الأولى 894هـ الموافق 7 من إبريل 1489 في جُبَن، وتولى الحكم من بعده ابنه الملك الظافر صلاح الدين عامر بن عبدالوهاب بن داؤود بن طاهر.

وفي أثناء حكمه، شهدت الدولة الطاهرية صراعاً على السلطة بين الملك الظافر صلاح الدين عامر وأخواله. ففي 16 جمادى الأولى الموافق 16 من إبريل من العام نفسه، توجَّه الملك الظافر إلى تعز، وعَلِمَ أن أخواله (الشيخ عبدالله ومحمد وعمر) دعوا لأنفسهم بالحكم، وخرجوا عن طاعته، وشكَّلوا جيشاً تضمَّن عناصر من يافع وجُبَن، فاستولوا على حصون جُبَن، ونهبوا الدار التي بناها الملك المنصور، وخربوا بيوت أعيانها وتجارها.

وفي 22 من الشهر نفسه الموافق 22 من إبريل، غادر الملك الظافر تعز متوجهاً إلى جُبَن بجيش يزيد على 20 ألف مقاتل، فهرب الشيخ عبدالله إلى جبل حَرِيْر ثم إلى يافع وتحصن بها. وفي 14 من رجب الموافق 12 من يونيو من العام نفسه، أمر الملك الظافر بإخراج أهل يافع من عدن، فخرج منها نحو 500 شخص. وبوساطة الأمير عمر بن عبدالعزيز الحبيشي، وُقِّعَ الصلح بين الملك الظافر وبقية أخواله في حصن جُبَن، ونص الاتفاق على أن يدفع لهم الملك الظافر من مال عدن 40 ألف دينار سنويّاً، مع منحهم جبل حَرِيْر والشُعِيب (الديبع، 1983).

ثم نقض أخواله الصلح، فحاربهم الملك الظافر، واستولى على أموالهم وذخائرهم، وقتل عدداً كبيراً منهم، وأسر نحو 540 شخصاً.

وفي أثناء تلك المرحلة، واجهت الدولة الطاهرية قوى خارجية متمثلة في دولة المماليك التي سعت إلى بسط سيطرتها على اليمن، وخاضت معارك عديدة مع الدولة الطاهرية، وتمكنت من قتل الملك الظافر عامر بن عبدالوهاب في 923هـ. وكان ابنه أحمد في المقرانة فخلفه في الحكم. وبوفاته، اختير الشيخ عامر بن عبدالملك بن داؤود لتولي الحكم.

وفي أواخر رمضان من 925هـ الموافق سبتمبر 1519، توفي الشيخ عامر بن عبدالملك، واتهم البعض الشريف عبدالرحمن بن حسين بن عبدالله بن أبي بكر باعلوي بأنه دبّر لقتله بالسم، فقتله جندي يُعرف بالحسيني. وفي المقرانة، اتفق على مبايعة الشيخ أحمد بن محمد بن عامر (با مخرمة، 2007).

وفي عهده، واجهت الدولة الطاهرية العثمانيين الذين جاؤوا على أنقاض دولة المماليك، وفي 926هـ جهز الشيخ أحمد بن محمد حملة لاستعادة تعز، وأمده الأمير مرجان بقوات من عدن. ووقعت معركة بين قوات الدولة الطاهرية والعثمانيين المتمركزين في تعز، فانهزمت قوات الطاهريين؛ مما دفع بعض القبائل إلى التمرد على الشيخ أحمد. حتى الأمير مرجان لم ينفذ

أوامره، فلما رأى الشيخ أحمد ذلك، قرر التوجه إلى عدن، لكن الأمير منعه من دخولها، وأمر خطيب عدن بالخطبة للشيخ عبدالملك بن محمد بن عبدالملك بن داؤود.

وفي 927هـ أراد الشيخ عبدالملك دخول عدن والإقامة فيها أياماً؛ إذ إن كثيراً من القبائل رفضت الانقياد له دون ذلك. وفي أواخر ربيع الأول، دخل عدن، واشتعل الصراع بينه وبين الأمير مرجان الذي توفي في العام نفسه.

وفي عهده، أرسل العثمانيون سلمان وعمر كوت في933هـ بقوة قوامها 2000 مقاتل، فتوجهوا إلى كمران، ثم استولوا على تعز من الشيخ عبدالملك، وحاصروه في "مضرح". ثم تقدم العثمانيون نحو جُبَن والمقرانة، فهرب الشيخ متخفياً إلى آل عمار، فقبضوا عليه وقتلوه.

في عدن أقام أخوه الشيخ أحمد، ولكن عندما توجّه العثمانيون نحو المدينة، فرّ الشيخ أحمد عبر البحر قاصداً الهند. إلا أنه توقّف في المهرة، حيث دخلها وأقام فيها عدة أيام قبل أن يعود إلى اليمن. هناك، سمح له ابن عمه عامر بن داؤود بالتوجّه إلى تعز.

أما في عدن؛ فقد اختار أعيانُها الأميرَ عبدالصمد بن إسماعيل حاكماً للمدينة، وطالبوه بتسليمها للعثمانيين. إلا أن الأمير عبدالصمد أصرّ على الرفض، مؤكداً أنه لن يسلم عدن إلا للشيخ عامر بن داؤود.

وفي أول صفر 934هـ الموافق 26 من أكتوبر 1527، وصل صفر عبدالأمير سلمان إلى عدن حاملاً رسالة من الدولة العثمانية تدعو أهلها إلى الطاعة. فقبل الأمير عبدالصمد بن إسماعيل المصالحة، واتفق على:

- صك العملة باسم السلطان العثماني.
- إقامة الخطبة باسمه.
- منح العثمانيين نصف أرباح السفن التجارية القادمة من الهند.

وفي أواخر صفر من العام نفسه، وصل عامر بن داؤود إلى عدن، وفي ربيع الأول، نقضت الدولة الطاهرية الصلح مع العثمانيين.

رداً على ذلك، أرسلت الدولة العثمانية في 9 من ذي القعدة 935هـ الموافق 14 من يوليو 1529 قوة عسكرية كبيرة بقيادة مصطفى بيرم وصفر عبدالأمير سلمان لمحاصرة عدن. استمر الحصار حتى شهر ربيع الثاني، وتسبّب في:

- ارتفاع أسعار السلع.
- لجوء السكان لأكل الميتات والقطط والكلاب.
- وفاة أعداد كبيرة من أهل المدينة.

وأخيراً، في 17 من ربيع الآخر 936هـ الموافق 18 من نوفمبر 1529، انسحبت القوات العثمانية بعد فشلها في احتلال عدن.

وفي أثناء تلك المدَّة، بدأ الزيديون يشكِّلون خطراً وجودياً على الدولة الطاهرية، عندما تمكّن المطهّر بن الإمام شرف الدين من بسط نفوذه على مناطق واسعة من اليمن، بما في ذلك السيطرة على جميع المناطق الواقعة بين تعز وصنعاء وصولاً إلى قلعة تعز (بافقيه، 1999). إلا أن السقوط النهائي للدولة الطاهرية جاء على يد العثمانيين.

ففي 15 من محرم 945هـ الموافق 12 من يونيو 1538 (سالم، 1999)، قاد سليمان باشا حملة عسكرية إلى اليمن. ووفقاً لرواية المؤرخ الموزعي (1986) صاحب كتاب "دخول العثمانيين الأول على اليمن المسمى (الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان)"، فإن الهدف المعلن للحملة كان:

- إصلاح أحوال اليمن.
- إخماد نار الفتنة.
- محاربة البرتغاليين في الهند.

وكان السلطان عامر بن داؤود يرسل رسائل إلى السلطان العثماني، يعلن فيها خضوعه للدولة العثمانية ويطلب إمداده بقوات عسكرية لمواجهة الإمام شرف الدين وابنه المطهّر. بالمقابل، عندما علم الإمام شرف الدين بوصول سليمان باشا إلى عدن، كتب إليه يتهم السلطان عامر بمهادنة البرتغاليين ورغبته في فتح عدن أمامهم (الموزعي، 1986).

وفي 7 من ربيع الأول 945هـ الموافق 2 من أغسطس 1538، وصلت الحملة العثمانية إلى عدن (بن هاشم، 2002). طلب سليمان باشا من السلطان الحضور إلى سفينته للتفاوض، فخرج السلطان ومعه ستة من أعوانه، حاملين هدايا وتحفاً ثمينة (الموزعي، 1986). ولكن في 9 من ربيع الأول الموافق 4 من أغسطس، قام العثمانيون بالقبض على الشيخ عامر بن داؤود ومرافقيه، ثم شنقوهم وتركوا جثثهم معلقة قرب باب الساحل لمدّة يومين كاملين قبل دفنها في اليوم الثالث. بعد ذلك، غادر سليمان باشا إلى الهند، تاركاً حاكماً عثمانياً يدعى بهرام مع خمسمائة مقاتل تركي لحكم عدن (بن هاشم، 2002).

المبحث الثاني: الأهمية الاقتصادية للسواحل العربية الجنوبية

سيطرت السواحل العربية الجنوبية على تجارة المحيط الهندي، وكان ميناءا عدن والشحر من أهم موانئها. وقد كان حكّام تلك السواحل يُنظّمون دوريات حراسة على السواحل ومصبّ البحر الأحمر من أجل حماية طرق التجارة من القراصنة. وأسهم تأمين وصول السفن التجارية في ازدهار التجارة العالمية؛ إذ أصبحت السواحل العربية الجنوبية ملتقى السفن القادمة من الهند والحبشة (إثيوبيا) وبلاد فارس (إيران) (أحمد، 1989).

كما كانت التجارة العالمية بين الشرق والغرب تسلك طرقاً عديدة برية وبحرية؛ حيث تتجمع السلع الشرقية وغيرها من البضائع في عدن، ثم تُنقَل بحراً إلى مصر، ومنها تُحمَّل على سفن البندقية وجنوة المتجهة إلى أوروبا (السلمان، 2000)، وكانت تلك السفن تحمل بضائعَ متنوّعةً؛ مثل:

- الذهب والعبيد وأعمدة المانغروف من أفريقيا.
- البخور والتمور من شبه الجزيرة العربية.
- الخيول من بلاد فارس.
- الخزف من الصين.
- الفلفل والتوابل (غالبيتها من الهند، وبكميات أقل من ماليزيا وإندونيسيا).
- القرنفل وجوزة الطيب من جزر الملوك.
- القرفة من سيلان (سريلانكا).
- الأرز من البنغال.
- الكبريت من سومطرة (Crowley, 2015).

ونتيجةً لهذا الازدهار، لجأت الدول التجارية إلى إقامة علاقات ودّية مع حكّام السواحل العربية الجنوبية؛ إذ أرسلت مبعوثيها محمّلين بهدايا ثمينة من الصين والهند وسيلان وفارس والحبشة وعُمان والبحرين (أحمد، 1989).

واهتمّت الدولة الطاهرية بمدينة عدن، فعمدت إلى ترميم مينائها، وأقامت الأسوار حولها، وأنشأت العديد من الدور والمخازن والأسواق، وشيدت دار الجمارك لتحصيل الرسوم الجمركية المفروضة على السفن (مسعود، 2004)، حيث كان موظفو السلطان يتوجّهون إلى السفن الوافدة لمعرفة:

- من أين أتت؟
- ما حمولتها؟
- متى تغادر؟
- كم عدد الأشخاص على متنها؟

ثم كانوا ينزعون أشرعة السفينة وساريتها ودفّتها ومراسيها ويحملونها معهم، خشية أن يغادر طاقم السفينة الميناء دون دفع الرسوم المستحقة للسلطان (الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994).

وقد أدرك البرتغاليون هذه الأهمية التجارية لمدينة عدن، فراحوا يخطّطون لإنهاء دورها، وأصبح الاعتقاد سائداً بأن الاستيلاء على عدن سيحول دون وصول التجارة الشرقية إلى البحر الأحمر، كما يُعدّ ميناء عدن من أصلح الموانئ لاتخاذه قاعدة بحرية لأسطولهم، والعمل على فرض السيطرة على البحر الأحمر، وعلى ذلك أصبحت عدن جزءاً من المخططات الاستعمارية البرتغالية (مسعود، 2004).

أما ميناء الشحر، الذي يُعدّ أكبر المراكز التجارية في السواحل الشرقية الحضرمية؛ فقد كان يربط سواحل حضرموت وداخلها بالعالم الخارجي، وكانت السفن المحمّلة بالبضائع من شرق أفريقيا ومصر والهند وغيرها ترسو في الميناء (شعيب، 2005)، كما كانت المراكب المتجهة إلى البحر الأحمر ترسو فيه؛ إذ لم تكن تستطيع المرور عبر مضيق باب المندب بسبب تأخر الوقت أو بفعل الرياح الغربية التي تهبّ عكس اتجاهها.

وفي المقابل، كانت المنتجات الحضرمية تُجمَع في الميناء، لتصبح الشحر سوقاً تتم من خلالها عملية التبادل التجاري. ويُعدّ الخيل واللّبان الذكر (شهاب، 1977) والعنبر الشحري، والتمر الهندي، والإبل، والأغنام من أهم منتجات مدينة الشحر. وبذلك استفاد الميناء من الرسوم الجمركية المفروضة على النشاط التجاري (شعيب، 2005).

وعندما تعرضت السواحل العربية الجنوبية للتوسع البرتغالي، تحولت طرق التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح، فتأثرت حركة التجارة بشكل كبير، وقد فرض البرتغاليون حصاراً على تجارة البحر الأحمر والخليج العربي، واحتكروا تجارة التوابل؛ الأمر الذي أسهم بفقدان مناطق التصدير والموانئ الواقعة على طريق البحر الأحمر أهميتها التجارية، ومنها ميناءا عدن والشحر؛ مما أدى ذلك إلى تراجع حصيلة الرسوم الجمركية التي لم تعد تكفي لسد احتياجات دول المنطقة وسكانها (أحمد، 1989).

وكان الدافع الرئيسي للبرتغاليين للسيطرة على هذه السواحل هو:

- شراء البهارات والسلع الشرقية مباشرة من مصادرها.
- القضاء على الوسطاء الذين كانوا ينقلون البضائع الشرقية إلى أوروبا عبر البحر الأحمر مروراً بالسواحل العربية الجنوبية.

وبعد سيطرتهم على السواحل العربية الجنوبية، تمكن البرتغاليون من بيع التوابل في لشبونة بأسعار أقل من تلك السائدة في الأسواق الأوروبية الأخرى مثل البندقية وجنوة (Jayasuriya, 2008).

المبحث الثالث: مقاومة حكام السواحل العربية الجنوبية للتوسع البرتغالي

تمكن حكام السواحل الجنوبية العربية من مقاومة التوسع البرتغالي عندما توافرت لهم الإمكانيات اللازمة، وتمثلت في:

- استقرار أوضاع دولهم.
- وقف حركات التمرد ضدهم.
- توافر القوى البشرية الكافية.
- امتلاك الإمكانيات المادية الضرورية.

وقد بدأ الوجود البرتغالي في السواحل العربية الجنوبية في 1503، عندما قام البرتغاليون بأول زيارة لعدن بصفة تجار، كانوا يمارسون البيع والشراء في أسواقها أو يجمعون المعلومات عن أحوال عدن السياسية والاقتصادية والعسكرية، كما كانوا يترددون على ديوان حاكمها الأمير مرجان الظافري.

فبدأ البرتغاليون بتنفيذ هدفهم بإنشاء قاعدة بحرية تُمكّنهم من إغلاق مدخل البحر الأحمر أمام السفن العربية والهندية والفارسية التي كانت تنقل التجارة الآسيوية والإفريقية إلى مصر. لهذا الغرض، أرسل الملك مانويل الأول (Manuel I) ملك البرتغال قائدَيهِ: تريستاو دي كونها (Tristao de cunha) وألفرنسو دي ألبوكيرك (Alfonso de Albaquerque) لاحتلال جزيرة سقطرى (با مطرف، 1983) في 912هـ/1507 (شنبل، 2003).

ولكن تبيّن لاحقاً أن الجزيرة غير مجدية إستراتيجياً للقيام بدوريات في البحر الأحمر للأسباب الآتية:

- طبيعتها الصخرية القاحلة التي تفتقر إلى مصادر المياه والغذاء (Crowley, 2015).
- بعدها الكبير عن البر الرئيسي؛ مما يحد من فعاليتها.
- صعوبة توفير الإمدادات للحامية البرتغالية.

ولم يضطر ألبوكيرك إلى تأمين الطعام لطاقمه فحسب، بل اضطر أيضاً إلى إمداد الحامية التي عانت نقصاً حاداً في المؤن. وعلى الرغم من أن الجزيرة كان مقرراً بقاؤها تحت السيطرة البرتغالية لأكثر من قرن، فإن هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى تخلي البرتغاليين[9] عنها في 1511، وبقي الطريق البحري إلى البحر الأحمر مفتوحاً أمام السفن التجارية (Parry, 1981).

تحوّل الهدف الإستراتيجي بعد ذلك إلى الاستيلاء على عدن، التي كانت تمثل:

- موقعاً مثالياً لإنشاء قاعدة بحرية.
- نقطة تحكم حيوية في طرق التجارة.
- محطة توقف أساسية للسفن في البحر الأحمر (Crowley, 2015).

(9) تتباين الروايات حول خروج البرتغاليين من جزيرة سقطرى؛ فالمؤرخون اليمنيون يؤكدون أن ذلك جاء نتيجة مقاومة خميس وعمر ابني سعد بن الرويدي، بينما تشير المصادر البرتغالية إلى أن انسحابهم كان قراراً ذاتياً.

أولاً: مقاومة حكام عدن

بدأت أولى محاولات المقاومة ضد التهديد البرتغالي في عهد الملك الظافر عامر بن عبدالوهاب، في 912هـ / 1507 حين أمر الملك بتجهيز حملة عسكرية ضمت:

- 14 سفينة حربية.
- أكثر من 600 مقاتل.
- بعثة دينية تضم الفقيه إسماعيل الجرداني والشيخ عثمان العمودي وعدداً من طلاب العلم.

وكان الهدف الإستراتيجي للحملة حماية الممرات البحرية الإسلامية بعد تزايد اعتداءات البرتغاليين على سفن التجار المسلمين بين الهند ومضيق هرمز (وردت في المصدر باسم "هرموز").

انطلقت الحملة من ميناء عدن في 27 من شوال 912هـ الموافق 11 من مارس 1507 (الديبع، 1983)، لكن المصادر التاريخية تفتقر إلى معلومات عن مصيرها. ويقدّم الباحث محمد حميد السلمان في كتابه (الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج) فرضين محتملين:

أولاً: وقوع الحملة في قبضة الأسطول البرتغالي الذي كان يسيطر على المنطقة.

ثانياً: تعرّضها لعواصف بحرية شديدة في المحيط الهندي (السلمان، 2000).

أدرك ألفرنسو دي ألبوكيرك الأهمية الإستراتيجية لعدن، فأمر أسطوله بالإبحار نحوها (المجتمع الثقافي، 2000) في 5 من محرم 919 هـ الموافق 12 من مارس 1513 (بافقيه، 1999)، تكوّن الأسطول من 18[10] سفينة (شرف الدين، 2003) و2000[11] مقاتل (بافقيه، 1999)، وفي17 من محرم (شرف الدين، 2003) الموافق 24 من مارس[12]، رست سفن الأسطول البرتغالي على مرمى البصر من سواحل عدن، وقد واجه القادة البرتغاليون تحديات عديدة، أهمها:

(10) يُلاحَظُ تضاربٌ في روايات عدد السفن البرتغالية التي هاجمت عدن؛ فالمؤرخ أحمد بن عبدالله شنبل يذكر أنها كانت 20 سفينة.

(11) في كتاب "الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج (1507–1525)"، يُقدَّر عدد أفراد حملة ألبوكيرك على عدن بـ1700 جندي برتغالي، و1000 مقاتل مليباري (من إقليم ملبار في وسط الهند).

(12) تشير بعض المراجع الأجنبية –مثل كتاب "صعود القوة البرتغالية في الهند (1497–1550)"– إلى أن الأسطول البرتغالي وصل إلى عدن في 25 مارس، ليبدأ هجومه في اليوم التالي (26 مارس).

- نقص المعرفة بجغرافية الميناء.
- الخوف من اصطدام السفن عند دخول المياه ليلاً.
- مقاومة أهالي عدن الذين أشعلوا النيران فوق قمم الجبال لاستدراجهم إلى البر للمواجهة (المجتمع الثقافي، 2000).

وفي أثناء ذلك، أمر الأمير مرجان الظافري حاكم عدن أهلَها بتشييد التحصينات ومقاومة البرتغاليين، كما أمر سلطان الدولة الطاهرية عامر بن عبدالوهاب بِالقنوت عليهم في الصلوات الخمس بمسجد الأشاعر والجامع وفي خطبة الجمعة (الديبع، 1983).

أما ألبوكيرك؛ فقد أمر كاملَ الأسطول بالرسو، وظل في موضعه طوال الليل. وفي صباح اليوم التالي، وهو يوم "الجمعة الحزينة (يوم آلام المسيح)"، أبحر الأسطول كله قاصداً إلقاء مراسيه في الميناء الشرقي، فأرسل الأمير مرجان الظافري رسالة إلى ألبوكيرك عن طريق أحد مسلمي (كاننور) –بلدة على الساحل الغربي للهند– وكان موجوداً في عدن، يسأله: (ماذا يريد؟). فأجابه إنه في طريقه إلى جدة لمطاردة أساطيل المماليك. وعاد المبعوث إلى الأمير، الذي بدوره أرسل له هدايا من دجاج وخراف وليمون وبرتقال، ومعه رسالة يقول فيها: إن عدن تابعة لملك البرتغال، وإنه سينفذ كل ما يطلبه. فأجابه ألبوكيرك إنه ليس من عادته أن يقبل هدايا من حكام لم يُعقَد معهم معاهدات سلام، وإنه لن يقبل الهدية إلا إذا أمر بفتح أبواب عدن ورفع العلم البرتغالي واستقبال الجنود البرتغاليين.

فأرسل الأمير رسالة يحملها اثنان من أعيان عدن، تتضمن أن الأمير مرجان تابع لسلطان البلاد الذي لم يأذن له بالسماح للبرتغاليين بدخول عدن. لكن إن كان ألبوكيرك يريد شيئاً فليأتِ ومعه عشرون رجلاً عند حافة الساحل، وإن الأمير سيحضر ومعه عشرون رجلاً. فاعتذر ألبوكيرك عن أي لقاء إلا إذا كان داخل عدن. فلما عاد المبعوثانِ بهذا الرد، انقطعت الاتصالات بين الطرفين.

ومع طلوع الفجر، أمر ألبوكيرك بالنفخ في الأبواق، ثم انطلقوا ليصلوا إلى السور. وقد تزاحم الرجال وراحوا يتنافسون أيُّهم يصل أولاً فسبَّبوا فوضى كبيرة (المجتمع الثقافي، 2000). وتمكن خمسون رجلاً من الوصول إلى قمة السور، ومن بينهم الكاهن ديوغو ميرغولهاو(Diogo Mergulhâo) الذي حمل صليباً مرفوعاً على رمح (Whiteway, 1899).

وقد أدى هذا التزاحم والفوضى إلى كسر السلالم وتحطمها التي لم تتحمل العدد الكبير من الرجال الذين ارتقوها في الوقت نفسه. فمات عدد منهم، وجرح آخرون، ومنهم القائد جراسيا دي سوزا (Gracia De Sousa) (المجتمع الثقافي، 2000).

فالسلالم كانت تعاني مشكلة أخرى تتمثل في قصرها (Whiteway, 1899). فلما أدرك أهل عدن قلة عدد البرتغاليين فوق السور وأن سلالم قد كُسرِت، اندفعوا عند الفجوات التي وسعها جارسيا لمنع البرتغاليين من الدخول، واستطاعوا إغلاقها بكميات كبيرة من الأحجار والأتربة والقش المشتعل، وهو ما تسبب في اختناق معظم البرتغاليين، فقتل عدد منهم وجرح آخرون. أما البرتغاليون الذين كانوا فوق السور؛ فلم يستطيعوا منع أهل عدن من سد الفتحات؛ إذ لم يكن معهم رماح.

هجم الأمير مرجان على رأس مائةٍ من أهل عدن على البرتغاليين من السور، وقتل القائد جورج دي سيلفيرا (Jorge De Silveira)، وجرح عدداً منهم، وبدأ أهل عدن يطاردون البرتغاليين ويلاحقونهم ويقذفونهم بالرماح الخفيفة.

ولما رأى ألبوكيرك موقف البرتغاليين، أصدر أوامر بإعداد سلّم آخر من أجزاء السلالم المكسورة. وتم وضع السلّم الجديد إزاء السّور حتى تسارع الجنود إليه راغبين في الصعود. ولم تتح فرصة لمن فوق السور للنزول. ونظراً لكثرة عدد الجنود، سقط السلّم الجديد.

وبعد أن جمع ألبوكيرك كل قواته استعداداً لركوب السفن، أمر الأمير مرجان بإطلاق المدافع المتمركزة في جزيرة صيرة؛ مما أدى إلى مقتل عدد من البرتغاليين وجرح كثيرين، فاضطر ألبوكيرك إلى توجيه رجاله لركوب السفن.

وفي صباح اليوم التالي، أصدر ألبوكيرك أمراً للقائد جارسيا بالاستيلاء على برج جزيرة صيرة ومتاريسها التي تضم ثلاثة وستين مدفعاً. وبعد أن حقق جارسيا هذا النصر، تمركز في الحصن حتى حان وقت إبحار ألبوكيرك نحو مضايق البحر الأحمر.

ثم قُصفت عدن؛ ما تسبب في تدمير العديد من المنازل. وعندما عاد جارسيا إلى السفن، أمر ألبوكيرك بإعادة تجهيز السفن وسلب كل البضائع والمؤن الموجودة في سفن المسلمين وإشعال النيران فيها، فلم يبق منها إلا سفينة واحدة (المجتمع الثقافي، 2000).

وبلغ عدد السفن التي أُحرقت في ميناء عدن نحو أربعين سفينة، وقُتل من البرتغاليين مائة، ومن أهل عدن خمسون (شنبل، 2003).

وبعد أسبوعين من إقامة ألبوكيرك في ميناء عدن، أرسل حاكم عدن مبعوثاً إلى السلطان المملوكي في مصر لإخباره بدخول البرتغاليين البحر الأحمر وقطعهم طريق الحج إلى مكة المكرمة. فرد عليه سلطان المماليك قائلاً: "إن كان البرتغاليون قد دخلوا البحر الأحمر فلا بد أن يحمي حاكم عدن موانئه وبلاده بنفسه. كما أن السلطان المملوكي سيحمي الموانئ التابعة له، والبلاد التابعة له".

يعود ذلك الرد العنيف من السلطان المملوكي إلى أن المماليك كانوا قد طالبوا حاكم عدن بالتبعية لهم، ذاكرين أنها كانت تابعة لأبيه وأجداده. لكن سلطان عدن أجاب بأنه ليس لعدن سيد سواه (المجتمع الثقافي، 2000، ص. 469).

ومن زيلع، عاد ألبوكيرك إلى عدن في 14 من جمادى الأولى 919هـ الموافق 17 من يوليو 1513، وأرسى سفنه وعددها 16 سفينة في المكان نفسه الذي رَسَا فيه أول مرة (الديبع، 1983). وكان في ميناء عدن عدد كبير من السفن الكبيرة. كما وجد جزيرة صيرة محصنة بأسوار وأبراج لم تكن موجودة من قبل، فأرسل ابن أخته "د. جارسيا دي نورونها" (Dr. Gracia De Noronha) لمهاجمتها.

وأمر ألفونسو دي ألبوكيرك بسحب مدفعين ووضعهما في سفينتين رئيسيتين، ثم اقتربت السفينتان اقتراباً شديداً من سور الجزيرة لإلحاق أكبر قدر ممكن من الأضرار به. ولم يمضِ وقت طويل حتى استولى على الجزيرة. وما إن استقر فيها حتى أمر رجاله بإقامة مدفع في البرج الرئيسي، ومن هذا الموقع بدأ بقصف عدن، فأوقع أضراراً كبيرةً في المباني، وهدم عدداً كبيراً من المنازل (المجتمع الثقافي، 2000)، وقُتِلَت مجموعة من أهل عدن ممن كانوا في الأسواق (الديبع، 1983).

أما المنجنيق (العرَّادة) –وهي آلة حربية تُستخدم لدك الحصون ورمي الحجارة– الذي نصبه أهل عدن فوق قمة الجبل؛ فقد بدأ يلحق أضراراً كبيرة بالقوات البرتغالية المتمركزة في البرج (المجتمع الثقافي، 2000). وتمكن أهل عدن من قتل قائد المجموعة البرتغالية التي نزلت إلى الساحل، بالإضافة إلى سبعة آخرين. كما تمكنت مدافع عدن من إلحاق الضرر باثنتين أو ثلاث

سفن برتغالية يومياً؛ مما اضطر البرتغاليين إلى إبعاد السفن المتبقية إلى مسافة بعيدة تجنُّباً لمدى مدافع المدينة (الديبع، 1983).

وأمر جارسيا المدفعي جواو لويز (Joao Luiz) بإطلاق النار على المنجنيق، وتمكن من تدميره بالطلقة الثانية. ولحماية أنفسهم من قذائف البرتغاليين، شرع أهل عدن في بناء سور من الأحجار والملاط[13].

وفي منتصف ليلة الجمعة، تمكن البرتغاليون من الاقتراب من شاطئ عدن بقواربهم، فقتلوا نحو 30 من حراس السفن، وأشعلوا النار فيها. إلا أن السفن كانت مبتلةً بالماء، فلم يحترق منها سوى ثلاث سفن. بعد ذلك، عادت قوارب البرتغاليين إلى سفنهم وغادروا عدن (المجتمع الثقافي، 2000)، متجهين إلى الهند في اليوم الأول من شهر جمادى الآخرة 919هـ الموافق 3 من أغسطس 1513 (الديبع، 1983).

ثانياً: مقاومة حكام الشحر

أرسل البرتغاليون حملةً للاستيلاء على الشحر، بلغ عدد سفنها 9 سفن[14]، متجهةً نحو شاطئ المدينة (الكندي، 2003). في 9 من ربيع الآخر 929 هـ الموافق 24 من فبراير 1523، ألقت الحملة مراسيها قبالة الساحل.

ولم يكن السلطان بدر الطويرق موجوداً في الشحر آنذاك؛ إذ كان في زيارة تفقدية لوداي حضرموت، وأخذ معه معظم رجال حامية المدينة، بمن فيهم رجب التركي وجنوده. ولم يترك السلطان في الشحر سوى حامية رمزية مكونة من 76 رجلاً.

نزل ثلاثة بحارة برتغاليين إلى الساحل حاملين رسالة من القائد لويز دي منزيس (Luis De Menzies) إلى السلطان بدر. طلب أمير البحر (الشخص المسؤول عن الميناء) منهم تسليم الرسالة إليه ليبلغها للمسؤولين، لكن البحارة رفضوا وأصرّوا على مقابلة السلطان أو نائبه شخصياً، فاصطحبهم إلى الأمير مطران بن منصور حاكم الشحر، وسلموه الرسالة.

(13) الملاط: يُستخدم الملاط لربط طوب البناء ومنشآت الطوب الحراري بعضها ببعض، ويتكوّن من الإسمنت والجير والرمل والماء. ويُستعمل في تثبيت الطوب في مواضعه، وتشكيل جدار قوي ومتين يقاوم الرطوبة. (مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، 1999).

(14) يذكر المؤرخ محمد بن هاشم في كتابه حضرموت (تاريخ الدولة الكثيرية) أن عدد السفن البرتغالية التي شاركت في الحملة على مدينة الشحر بلغ 14 سفينة حربية.

وكان مضمون الرسالة أن تاجراً برتغالياً يُدعى ألفونسو دي فيجا (Alfonso De Veiga) توفي في الشحر قبل خمسة أشهر، وأن السلطان بدر صادر أمواله، لذا يطالب قائد الأسطول بإعادة تلك الأموال فوراً دون تأخير (با مطرف، 1983).

مع فجر يوم الجمعة، تسلل البرتغاليون إلى الشحر، فنهبوا المدينة وأحرقوها وخربوها. تصدى لهم الأهالي بقيادة أعيان المدينة، وعلى رأسهم الشيخ أحمد بن عبدالرحمن با حاج با فضل، الذي أرسل رسلاً إلى حضرموت يستنفرهم للجهاد.

بقيت القوات البرتغالية في الشحر ثلاثة أيام (من الجمعة إلى الأحد)، ثم انسحبت إلى سفنها يوم الإثنين متجهةً نحو الهند[15] (بن هاشم، 2002).

وفي أثناء المعارك، قُتل 37 برتغالياً وهندياً، بينما استشهد من أهل الشحر نحو 73 (با مطرف، 1983)، من بينهم:

- الأمير مطران بن منصور حاكم الشحر (أصابته رصاصة من بعيد).
- الشيخان أحمد وفضل ابنا رضوان با فضل.
- الفقيه يعقوب بن صالح الحريضي (الكندي، 2003).
- الشيخ أحمد بن عبدالرحمن با حاج با فضل.
- سبعة من أبناء الجالية الهندية (الهندوكية) (با مطرف، 1983).

المبحث الرابع: مهادنة حكام السواحل العربية الجنوبية للبرتغاليين

اضطر حكام السواحل العربية الجنوبية إلى مهادنة البرتغاليين عندما لم تتوافر لهم إمكانية المقاومة؛ فقد أنهكت الصراعات الداخلية جهود الدولتين الكثيرية والطاهرية في مواجهة البرتغاليين. وشملت هذه الصراعات النزاعات بين أفراد العائلة الحاكمة، وحركات التمرد التي قادها حكام المناطق التابعة لهما.

(15) يذكر المؤرخ سالم الكندي في كتابه (تاريخ حضرموت المسمى بالعدة المفيدة الجامعة لتواريخ قديمة وحديثة) أن القوات البرتغالية اتجهت إلى الهند بعد انتهاء هجومها على مدينة الشحر.

في حين كان على حكام السواحل العربية الجنوبية مواجهة الأطماع الخارجية المتمثلة في دولة المماليك والدولة العثمانية، اللتين سعتا إلى فرض سيطرتهما على تلك السواحل.

مهادنة البرتغاليين لم تكن مرحلة تاريخية محددة، وإنما كانت تعتمد على الوضع الداخلي للسواحل العربية الجنوبية. فقد بدأت عندما جاءت أخبار من البرتغال في يناير 1516 تؤكد أن المماليك في مصر كانوا يعدون أسطولاً في البحر الأحمر للانتقام من هزيمة ديو في 1509، وأن حاكم المماليك طومان باي أمضى بقية العام في الاستعداد للذهاب بحثاً عن البرتغاليين (Whiteway, 1899).

وفي 8 من فبراير 1516، أعد الحاكم البرتغالي للهند لوبو سواريز دي ألبرجاريا (Lopo Soures De Albergaria) حملة تنفيذاً لأوامر الملك البرتغالي لمحاربة أسطول المماليك، والسيطرة على البحر الأحمر وإغلاقه نهائياً في وجه التجارة الإسلامية (حنظل، 1997). وقُدِّر عدد الأسطول بـ 37 سفينة و1800 مقاتل، منهم 600 بحار و1000 ملباري –ملبار منطقة في جنوب الهند–، و2000 من العبيد. فوصل البرتغاليون إلى سقطرى في 28 فبراير، وفي مارس وصل الأسطول إلى عدن (Whiteway, 1899)، مستغلين الأضرار البالغة التي لحقت بحامية عدن وتحصيناتها الدفاعية من جراء الحملة الفاشلة التي قادها المماليك. فأراد البرتغاليون اغتنام هذه الفرصة الذهبية للانقضاض على عدن، فجمع الأمير مرجان الظافري أعيان عدن وتشاور معهم، وكان أكثرهم يرَوْن أن يُسلِّموا عدن للبرتغاليين (با مطرف، 1983).

أرسل الأمير مرجان الظافري مفاتيح عدن إلى لوبو سواريز، وكان ذلك دليلاً على خضوعه لملك البرتغال، أما مبررات تسليم عدن؛ فقد وردت في كتاب "صعود القوة البرتغالية في الهند 1497–1550م" من أن عدن كانت غير قادرة على مواجهة عدو جديد، بعد أن صدت هجوماً من الأسطول المملوكي وتحطم سور المدينة. كما أن حامية عدن أصبحت غير قادرة على مواجهة البرتغاليين، فضعفت قوتها كثيراً سواء في الهجوم أو الدفاع (Whiteway, 1899).

طلب الأمير مرجان من البرتغاليين إنقاذ عدن من المماليك. بالمقابل، طلب لوبو سواريز من الأمير أن يبقى محتفظاً بعدن ويدافع عنها إلى أن يعود إليها بعد طرد المماليك من البحر الأحمر، فأعطاه الأمير عدداً من الكباش (فحل الضأن) وصناديق العنب والرمان (با مطرف، 1983).

بينما يقدّم كتاب (صعود القوة البرتغالية في الهند 1497–1550) تبريراً مختلفاً لرفض لوبو سوارِز تسلّم عدن، مستنداً إلى أن أوامر الملك كانت تقتضي محاربة الأسطول المملوكي، كما أن الاستيلاء على عدن كان سيؤدي إلى إضعاف قوته وتشتيتها؛ إذ إنه بعد عودته يمكنه الحصول عليها بسهولة (Whiteway, 1899).

غادر لوبو سواريز عدن عصر اليوم نفسه الذي وصل فيه إليها متجهاً نحو الحديدة. وهناك علم أن قطعاً من الأسطول المملوكي غادرت منذ أيام باتجاه جدة، فحاول اللحاق بها. وفي أثناء ذلك، هبت الزوابع –وهي حركة مفاجئة سريعة للرياح تكون مصاحبة عادة لتغيرات في الطقس– مما أدى إلى تضرر معظم الأسطول البرتغالي؛ فاعتصم ما تبقى من الأسطول بجزيرة كمران.

وبعد أشهر عديدة، غادر كمران إلى جزيرة دهلك، ومنها إلى ميناء زيلع، ثم عاد إلى كمران، ومنها إلى عدن ليتسلمها من الأمير مرجان، وفي أثناء تلك المدَّة، تمكن الأمير مرجان من تعزيز قوته من خلال تجنيد مئات من رجال القبائل وقوات من حضرموت مكونة من 1000 مقاتل (با مطرف، 1983)، وترميم سور المدينة (Whiteway, 1899) والتحصينات الدفاعية في جبل حقات (با مطرف، 1983).

وبوصول لوبو سواريز إلى عدن، شهد استقبالاً مختلفاً تماماً عن استقباله قبل بضعة أشهر؛ فلم يكن هناك حديث الآن عن تسليم عدن، وإنما سُمح له بشراء بعض المياه (Whiteway, 1899).

وفي مراحل تاريخية، لم تجبر الأوضاع الداخلية للسواحل العربية الجنوبية حكامها على عدم مقاتلة البرتغاليين فحسب، بل على توقيع اتفاق تضمن شروطاً مجحفة أيضاً. وكان ذلك في عهد الحاكم البرتغالي للهند فاسكو دي جاما (Vasco De Gama) الذي أمر هايتور دي سلفيرا (Heiltor De Silveira) بقيادة حملة لمحاربة السفن العربية في البحر الأحمر، وقد بلغ قوامها نحو 700 مقاتل.

وفي يناير 1524، وصلت الحملة إلى عدن. ولم يبقَ أمام حاكمها الأمير عبدالملك بن محمد الطاهري –وهو يراقب الأسطول البرتغالي وقد وجّه مدافعه نحو المدينة– إلا أن يفتح أبوابها ويعقد معاهدة صلح مع هايتور دي سلفيرا. ونصت اتفاقية على الآتي:

- دفع حاكم عدن ضريبة للتاج البرتغالي مقدارها ألف أشرفي ذهب.
- فتح ميناء عدن للسفن البرتغالية.
- إقامة ممثل برتغالي دائم في عدن.

وعندما عاد هايتور دي سلفيرا إلى الهند، سلَّم فاسكو دي جاما نسخةً من اتفاقية الصلح التي عقدها مع حاكم عدن. إلا أن فاسكو دي جاما لم يكن راضياً عن تلك الاتفاقية، وكان يعتقد أن حاكم عدن قد خدعه بتلك المعاهدة؛ إذ إنه وقعها بهدف عدم قيام البرتغاليين بحرق السفن في ميناء عدن. كما اعتقد أن حاكم عدن لن يكفَّ عن مهاجمة السفن البرتغالية أو تابعاتها متى ما سنحت له الفرصة. وبالفعل، وصلت أخبار عن حجز سفينة هندية تعمل لحساب البرتغاليين في ميناء عدن.

نقض حاكم عدن اتفاق الصلح؛ مما دفع الحاكم البرتغالي للهند نانو دي كونها (Nuno De Cunha) إلى إرسال القائد هايتور دي سلفيرا إلى عدن في فبراير 1530. وعندما وصل الأسطول البرتغالي إلى ميناء عدن، أرسل عامر بن داؤود الطاهري وفداً يحمل علماً أبيض للترحيب بهم. إلا أن هايتور دي سلفيرا رفض هذه البادرة، مستنداً إلى عدم التزام الحاكم السابق بالاتفاق المبرم مع البرتغاليين.

وعندما التقى عامر بن داوود الطاهري القائد البرتغالي، وقَّعا اتفاقاً جديداً نص على:

- إعلان الطاعة للملك البرتغال.
- دفع عشرة آلاف أشرفي ذهب كضريبة سنوية، على أن يُدفع ألف وخمسمائة منها نقداً لصناعة تاج ذهبي لملك البرتغال بمناسبة عيد جلوسه على العرش.
- منح حرية الملاحة للسفن اليمنية، بشرط ألا تدخل مياه البحر الأحمر أو ميناء مكة.

ووقع البرتغاليون اتفاقاً مماثلاً مع حاكم الشحر (حنظل، 1997)، الذي رفض محاولات أهل المدينة لمقاتلة البرتغاليين. ففي 21 من شعبان 938هـ الموافق 28 من مارس 1532، وصلت 7 سفن برتغالية إلى ميناء الشحر واحتُجزت سفن عديدة، منها سفينة يوسف التركي (أحد سكان الشحر)، التي كانت محملة ببضائع متجهة من جدة إلى الهند؛ مثل الرصاص والمرجان والزئبق والقماش الجوخ (المصنوع أساساً من الصوف).

أما السفن الأخرى التي استولى عليها البرتغاليون في الميناء؛ فقد قام طاقم بعضها بإغراقها، بينما دفع أصحاب البعض الآخر فدية للإفراج عنها. وفي 24 من شعبان الموافق 31 من مارس من العام نفسه، استعد البرتغاليون لحرق سفينة يوسف التركي، فبدأ البرتغاليون ففتحوا النار بالبنادق على أهل الشحر المتجمهرين على الشاطئ. وقد سبق ذلك استعدادات يوسف التركي للرد على البرتغاليين. وعندما شاهدهم البرتغاليون الذين صعدوا إلى السفينة، ألقوا بأنفسهم في البحر؛ مما أتاح ليوسف التركي استعادة سفينته. واستمرت المناوشات المدفعية حتى حلول الليل، أسفرت عن مقتل شخصين على الشاطئ هما محرم با مختار ورجل من عدن.

وقد عززت هذه الأحداث عزم أهل الشحر على مقاومة البرتغاليين. وفي 29 من شعبان الموافق 5 من إبريل من العام نفسه، أفرج البرتغاليون عن السفن المحتجزة بعد دفع الفدية، باستثناء سفينة يوسف التركي التي أبحر بها دون دفع فدية (Serjeant, 1963).

وفي 15 من رمضان[16] الموافق 20 من إبريل من العام نفسه، وصلت إلى ميناء الشحر 4 سفن حربية برتغالية ترافقها 7 سفن شحن، تحت قيادة القبطان البرتغالي أنطونيو دي سلدانا (Antonio De Saldanha). استولى البرتغاليون على سفن عديدة كانت راسية في الميناء، غير أن يوسف التركي وأتباعه قاوموهم بالبنادق والمدافع. إلا أن أعوان السلطان منعوه من متابعة المقاومة، بل سجنوا بعض بحارته (با مطرف، 1983)، وضربوا عماله (Serjeant, 1963)، وصادروا معدات سفينته مثل الدفة والبوصلة والأسطرلاب؛ مما مكن البرتغاليين من الفرار بغنائمهم (با مطرف، 1983).

الخاتمة

مثَّلت السواحل العربية الجنوبية أهمية اقتصادية إستراتيجية دفعت القوى المحلية والدولية لبذل جهود حثيثة لفرض نفوذها عليها. وقد انعكس هذا التنافس على حكام المنطقة الذين وجدوا أنفسهم أمام تحديات ثلاثية: من قمع حركات التمرد الداخلية، إلى فض النزاعات بين أفراد الأسرة الحاكمة، ومواجهة الضغوط الخارجية بين المقاومة والمهادنة.

(16) يؤكد كتاب البرتغاليون قبالة الساحل العربي الجنوبي أن الحملة التي قادها أنطونيو دي سالدانا بدأت يوم الخميس 12 من رمضان، وانتهت يوم السبت 14 من رمضان من العام نفسه.

وقد أسفرت الدراسة عن جملة من النتائج يمكن إجمالها في الآتي:

- انشغال حكام السواحل العربية الجنوبية بالتصدي لتمرد أفراد العائلة الحاكمة وحكام المناطق التابعة لهم، أسهم في إضعاف قدراتهم على مواجهة الخطر الخارجي المتمثل في المماليك والعثمانيين والبرتغاليين.
- تأثرت ميزانية الدولة الكثيرية والدولة الطاهرية نتيجة أعمال القرصنة التي مارسها البرتغاليون، وإجبار حكام الدولتين على دفع الجزية السنوية للبرتغاليين، وقد قُدّرت سابقاً بألف أشرفي ذهب، تم مضاعفتها إلى عشرة آلاف أشرفي ذهب.
- استطاع حكام السواحل العربية الجنوبية، على الرغم من الإمكانيات الضعيفة مقارنة بإمكانيات البرتغاليين، مقاومتهم وتحقيق الانتصار، وظهرت شخصيات يمنية لعبت دوراً كبيراً في مقاومة البرتغاليين؛ مثل أمير عدن مرجان الظافري.
- تصاعد الخلافات الداخلية، ومواجهة الخطر المملوكي والعثماني، وعدم توافر الإمكانيات البشرية والمادية، دفع حكامَ السواحل العربية الجنوبية إلى مهادنة البرتغاليين، وتوقيعَ حكامِها اتفاقيات صلح تتضمن بنوداً مجحفةً بحق دولهم.
- رفضُ حكام السواحل في فترات تاريخية مقاومةَ البرتغاليين، أسهم في زيادة أعمال القرصنة التي كان يمارسها البرتغاليون، وخير مثال على ذلك قمعُ السلطان الكثيري للتاجر يوسف التركي، الذي رفضَ دفعَ الفديةِ للبرتغاليين، وحاول مقاومةَ إحراقِ سفينتِه.

المراجع

أحمد، محمد. (1989). *بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما (628–923هـ/ 1231–1517م)*. دار المعرفة الجامعية.

با مخرمة، أبي محمد. (2007). *قلادة النحر وفيات أعيان الدهر* (تحقيق بوجمعة مكري، خالد زواري). دار المنهاج للنشر والتوزيع.

با مطرف، محمد. (1983). *الشهداء السبعة*. دار الهمداني للطباعة والنشر.

بافقيه، محمد. (1999). *تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر الهجري* (تحقيق عبدالله محمد الحبشي). مكتبة الإرشاد.

بن هاشم، محمد. (2002). *حضرموت (تاريخ الدولة الكثيرية)*. تريم للدراسات والنشر.

الجعيدي، عبدالله. (2014). *السلطنة الكثيرية الأولى في حضرموت (814–1143هـ / 1411–1730)*. تريم للدراسات والنشر.

حنظل، فالح. (1997). *العرب والبرتغال في التاريخ (93–1134هـ / 711–1720م)*. منشورات المجمع الثقافي.

الديبع، عبد الرحمن. (1983). *الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد* (تحقيق يوسف شلحد). دار العودة.

الربابعة، خالد محمد عقلة. (2011). *الجغرافيا السياسية: دراسة تطبيقية على الجمهورية اليمنية*. دار جليس الزمان للنشر والتوزيع.

سالم، سيد. (1999). *الفتح العثماني الأول لليمن (1538–1635م)*. دار الأمين للطباعة والنشر والتوزيع.

السلمان، محمد. (2000). *الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج ما بين 1507–1525م*. مركز زايد للتراث والتاريخ.

شرف الدين، عيسى. (2003). *روح الروح (فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح)* (تحقيق إبراهيم بن أحمد المقحفي). مركز عبادي للدراسات والنشر.

شعيب، شيخة بنت صالح بن محمد. (2005). *ميناء الشحر في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي* [رسالة ماجستير]. كلية الشريعة والدراسات الإسلامية (قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية). جامعة أم القرى.

شنبل، أحمد. (2003). *تاريخ حضرموت (تاريخ شنبل)* (تحقيق عبدالله محمد الحبشي). مكتبة صنعاء الأثرية.

شهاب، حسن صالح. (1977). *أضواء على تاريخ اليمن البحري*. دار الفارابي.

الكندي، سالم. (2003). *تاريخ حضرموت المسمى بالعدة المفيدة الجامعة لتواريخ قديمة وحديثة* (تحقيق عبدالله محمد الحبشي). مكتبة الإرشاد.

المجتمع الثقافي. (2000). *السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك* (عبدالرحمن عبدالله شيخ، ترجمة). إصدارات المجتمع الثقافي.

مسعود، جهاد محيي الدين محمد. (2004). *الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في عهد الدولة الطاهرية (858–933 هـ/ 1454–1526م)* [رسالة ماجستير]. كلية دار العلوم. جامعة المنيا.

مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع. (1999). *الموسوعة العربية العالمية*. مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع.

الموزعي، شمس الدين. (1986). *دخول العثمانيين الأول على اليمن، المسمى (الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان)* (تحقيق عبدالله محمد الحبشي). دار التنوير للطباعة والنشر.

الهيئة المصرية العامة للكتاب. (1994). *رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري)* (عبدالرحمن عبدالله الشيخ، ترجمة وتعليق).

اليافعي، صلاح. (1354هـ). *تاريخ حضرموت السياسي*. المطبعة السلفية.

Crowley, R. (2015). *How Portugal forged the first global empire*. Random House.

Jayasuriya, Sh. (2008). *The Portuguese in the east*. Tauris Academic Studies.

Parry, J. (1981). *The discovery of the sea*. University of California Press.

Serjeant, R. (1963). *The Portuguese off the south Arabian coast (Hadraml chronicles with Yemeni and European accounts of Dutch pirates off Mocha in the seventeenth century).* LIBRAIRIE DU LIBAN.

Whiteway, R. (1899). *The rise of Portuguese power in India 1497-1550*. Westminster Archibald Constable & co.2 Whitehall Gardens.

د. سماح سعيد علي يسلم العزاني، باحث أول (أستاذ مساعد) بدائرة الدراسات والبحوث التاريخية في مركز الدراسات والبحوث اليمني / عدن. حاصلة على الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية الآداب، جامعة عدن، 2024، عن أطروحتها بعنوان: "علاقة اليمن الديمقراطية بإثيوبيا 1967 – 1990م". للباحثة عدة دراسات منشورة، وهي: "الخلافات الحدودية اليمنية الإرتيرية 1995 – 1998م"، و"دور المهرة في ثورة ظفار (1382 – 1402هـ / 1963 – 1982م)"، و"نفط حضرموت: بين تقارب وتباين سلطنتي حضرموت (شركة امتيازات النفط المحدودة أنموذجاً 1938 – 1960م)"، وذلك بعد مشاركتها في المؤتمر العلمي السادس "التاريخ والمؤرخون الحضارمة 1950 – 1967م"، كما حصلت الباحثة بتاريخ 6 أكتوبر 2025 على قبول لنشر دراسة بعنوان: "تداعيات قرار تقسيم فلسطين على يهود عدن". الاهتمامات البحثية: التاريخ العام، التاريخ الحديث والمعاصر، الموضوعات السياسية، قضايا تتعلق بشؤون المرأة.
smahzany866@gmail.com